لنشكر فنفرح

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

الشُّكرُ، يا أحبّة، فضيلةٌ مسيحيةٌ بامتياز. والإنسان الذي يشعرُ بقيمة نعمة الله، ويعي أهميّة بركته في حياته، هو إنسانٌ شكورٌ في كلِّ حين. ويطالبنا الكتاب المقدَّس، مِراراً وتَكراراً، بأن نقدِّم الشكرَ في كلِّ حين، غيرَ متعَبين منه. الإنسانُ الشَّكورُ إنسانٌ فَرِحٌ بما عندَه، أكانَ كثيراً أم قليلاً. إنّه إنسانٌ راضٍ عمّا حصَّله، أكانَ عظيماً أم بسيطاً. هو إنسانٌ مُكتَفٍ بما عنده، ويطلبُ الأفضل بهدوءٍ، من دون صَخَبٍ، من دون قلاقل، من دون اهتياجٍ داخلي. إنّه إنسانٌ شَبعان من ربّه، ويتطلَّع إليهِ أوّلاً وقبل أيّ شيءٍ آخر، ومنهُ يستمدُّ كلَّ عطيَّةٍ أخرى. طالما أن الله، مصدرُ الحياةِ معه، فإنَّه لا يشعرُ بالنُّقصانِ أبداً.

عندما نتذمَّر، عندما نتشكَّى، ولا نرضى بما عندنا، ونضطرب لأننا نريد المزيد، فإننا نعبّر، بطريقة غير مباشرة، عن أنَّنا لم نكتفِ من ربِّنا بعد، وأنَّنا لم نُدركْ، كما ينبغي، غاية الحياة المسيحية بعد.

عصرُنا هذا، أيُّها الأحبَّة، عصرٌ استهلاكيٌّ بامتياز. وكما تعلمون، يجعلنا نعمل كثيراً لكي نحصلَ على مدخول ماليّ أكثر، لكي نصرفَ أكثر؛ وهكذا دواليك، تبقى الدائرة تدورُ مغلقةً، ونبقى في سعيٍ محمومٍ نحو العملِ أكثر، لنحصِّلَ أكثر، لنصرِفَ أكثر. لكنّ الطامةَ الكبرى تكمن في أنَّنا كلَّما تقدَّمنا في مسيرتنا الاقتصادية هذه، نشعرُ بأنَّنا نحتاج إلى الأكثر، ولذلك نبقى في عدم الرضى، ونستمر في الطلب، وننسى حتى أن نفرحَ بما حصَّلناه، وبما صارَ عندَنا.

صار الفرحُ، في هذا الزَّمن الرَّديء، نادراً. قد تكون أويقات البهجة متوفرة من حين إلى آخر، لكنّ الفرح بعيد. لماذا؟ لأنَّ المطالبة بما نحن بحاجةٍ إليه، أو هكذا نظن، لهو أقوى من فرح التمتُّع بما حصَلنا عليه.

نبَّهَنا الإنجيلي يوحنا، في إحدى رسائله، إلى أن كل ما في هذا العالم، هو شهوةُ العين وشهوة الجسد وتعظُّم المعيشة (١ يو ٢: ١٦). ويحث الرسول بولس المؤمنين على أنْ يتجنَّبوا هذه الشهوات ويحذروها،(غلا ٥: ١٩-٢١) لماذا؟ لأنَّ شهوات هذه الدُّنيا لا تنتهي، كونها لا تُشبعنا، وتالياً، تجعلنا نجدّ في طلبها باستمرار. والواقع يعلّمنا، بالخبرة، أن الخيبة التي تليها، أقوى من لذة التمتع بها، بما لا يقاس. طلب الشهوات يقود الإنسان من خيبة إلى أخرى.

نبعُ الحياة عندنا ونحن نذهب، كما يقول إرمياء النبي، لنحفرَ آباراً مشقَّقةً لا تضبطُ الماء (أر ٢: ١٣). عندنا "الطَّريقُ والحقُّ والحياة" (يو ١٤: ٦)، ومع ذلك نهمله ونسعى وراء بريق يأخذ بألبابنا، ويخدعنا بوهم الحصول على الملء. ننسى ما أعطانا وننسى هذا النَّبع الذي يفيض باستمرارٍ ولا ينضبُ أبداً، ونطلبُ مياهاً ملوَّثةً من هنا وهناك.

تكمن تجربةُ عالمنا المعاصر، في أنه يُنسينا الشُّكرَ، وتالياً، كلَّ النِّعَم التي نحن فيها. يحاول عالمنا، بشتى الطرق، أن يفتحَ عيوننا دائماً على أمورٍ جديدة، خادعة ووهمية. يجعلنا نظنُّها أموراً لازمةً لا نستطيع الاستغناء عنها. من هنا الحكيم السائر على هدي الإنجيل، يفرحُ بِما عنده ويشكرُ الله عليه. نحنُ بصحةٍ جيدة لا نقدِّرُها إلا عندما نمرض! نحن نرى. أو ليس النظر نعمة؟! لا نقدّرها إلا عندما نرى ضريراً! نحن نمشي. حسناً هذه نعمة أيضاً. لكننا لا نشكر عليها ولا نعرف قيمتها إلا عندما نرى إنساناً مُقعَداً! هناك أمورٌ كثيرةٌ، أكثر من أن تُعَدّ، في حياتنا تجعلُنا نشكرُ ونشكرُ بفرحٍ وامتنان، وعلينا أن نبصرَها جيّداً.

يقول أحد آبائنا الروحيين المعاصرين: "لو شكر الإنسان على كلِّ شيء، لما وجدَ وقتاً للتذمُّر." التذمُّرُ يعني عدمَ الشُّكر، وعدمَ الامتنان، وعدم الاكتفاء بما أعطانا الرب من الصالحات. كما يعني أننا لم نشبع من ربنا، وأننا غير راضين عما نحن فيه.

قد يقول قائل: أنقبل بما عندنا ولا نسعى إلى الأحسن؟ ألا يحقُّ للمسيحي أن يكون طموحاً؟ ألا يحقُّ لنا، مسيحيين، أن نطلبَ الأفضل؟ بلى بالتأكيد. يحقُّ لنا هذا كلُّه ولكن بروحِ الشُّكران، بروحِ الرِّضى والابتهاج، بروح الامتنان لما عندنا. نحن نطلب الأفضل بهدوءٍ، لا بصخَب، نطلب الأفضل ونَعلمُ أنَّ أفضلَ الأفضل هو أن نكون في كنف الرَّب، ومن هناك وبنعمة الرَّب نحسِّن، لا أنفسنا فقط، بل كلَّ العالم الذي حولنا. هذا ليس حقٌّ فقط، بل هو واجبٌ علينا. واجبنا أن نجعلَ عالمنا صورةً عن ملكوت السموات. ولكن إن كنَّا في الغضبِ دوماً، في التذمُّرِ دوماً، في السَخَطِ، في الحزنِ، في القلقلة، في الاضطراب، كيف لنا أن نحسِّنَ أنفسَنا ونحسِّنَ عالمنا؟

قضى أحدُ الكهنة، الذين أُلقوا في زنزانةٍ فرديةٍ، أيام الاضطهاد الديني الشيوعي في روسيا، سنواتٍ طويلة، في زنزانته المنفردة تلك؛ لم يكنْ فيها سوى طاقة صغيرة في أعلى الغرفة، يدخل منها النور. وكان يردد يومياً، صلاة شكر، كتبها على جدران زنزانته، صلاة مفعمةً بالامتنان للرَّب، يشكر الله فيها لأن ثمّة أناسٌ يرَون نورَ السماء ويفرحون، ولأنّ ثمّة أناسٌ غيره يسمعون زقزقة العصافير ويفرحون، ولأنّ ثمّة أناسٌ يأكلون ما يُريدون ويشربون ما يُريدون ويفرحون... كان يفكّرُ، وهو المحروم من كلِّ شيء – كان يفكّرُ بالآخرين، الَّذين أُعطي لهم ما يحتاجونه، ويفرحُ لهم ويشكرُ الله لأنَّه أعطاهم هذا. أين نحن من شهادةٍ معاصرةٍ كهذه؟!

مثاله هذا يشجّعُنا على أن نرتفعَ إلى المستوى الروحيّ المسيحيّ المطلوب، ويعلّمنا أن نشكرَ في كلِّ حين، لا منَ الشفاه فقط، بل من القلب.

فلنتعلَّم جيداً ولنتذكَّر اليوم، أنَّ الفرح يكون بالمسيح. "إني أبشّركم بفرحٍ عظيم، وُلدَ لكم مخلِّص" (لوقا ٢: ١٠-١١). ألا يبدأ الإنجيل بهذه البشرى!! فلا ننسَ أيُّها الأحبة أنَّ الفرح الأعظم هو عندنا، علينا فقط أن نفتح أعيننا ونراه. أدامَ الله الفرح في حياتكم، وفي قلوبكم، وفي بيوتكم، دوماً، آمين.